الجانب التأريخي للقضية الفلسطينية
المواقف والتطورات (دراسة تأريخية إسلامية)

The Historical Aspect of the Palestinian Issue: Positions and Developments - An Islamic Historical Study

اعداد الباحث

د. ماهر ختال شريمط العبيدي

Dr. Maher Khatal Shuraimt Al-Abidi

التدريسي في الكلية التربوية المفتوحة - مركز الأنبار

فرع هيت الدراسي

07816089100

M1985ah@gmail.com

المستخلص

تُعدُّ القضية الفلسطينية من أبرز القضايا المحورية في التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر، حيث تمثل فلسطين أرضًا مباركة لها مكانة دينية وتاريخية فريدة في وعي المسلمين، بوصفها أرض الإسراء والمعراج وموقع المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. لقد مرت هذه الأرض الطيبة بمحطات عديدة من الفتح الإسلامي، ثم الغزو الصليبي، فالتحرير على يد صلاح الدين، إلى أن وقعت تحت الاحتلال البريطاني، ومنه إلى الاحتلال الصهيوني. وتُبرز هذه الدراسة المواقف الإسلامية من القضية الفلسطينية، منذ فجر الإسلام حتى الحقبة المعاصرة، في ضوء المصادر التاريخية والوثائق الإسلامية، ونسعى من خلالها إلى إبراز الأبعاد الدينية والتاريخية للصراع، بعيدًا عن القراءة السياسية البحتة.

الكلمات المفتاحية: بيت المقدس، العهدة العمرية، الصلبيين، صلاح الدين، حطين.

Abstract:

history. Palestine is a blessed land with a unique religious and historical status in the consciousness of Muslims, as it is the land of the Isra and Mi'raj and the location of Al-Aqsa Mosque—the first Qibla and the third holiest site in Islam. This sacred land has witnessed numerous historical phases, including the Islamic conquests, the Crusader invasion, its liberation by Salah al-Din (Saladin), the British occupation, and subsequently the Zionist occupation.

This study highlights Islamic perspectives on the Palestinian cause from the dawn of Islam to the modern era, based on historical sources and Islamic documents. It aims to shed light on the religious and historical dimensions of the conflict, distancing itself from purely political interpretations.

Keywords: Jerusalem, the Umari Covenant, Crusaders, Salah al-Din, Battle of Hattin.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعدُ:

بدأ اهتمام المسلمين بمدينة القدس منذ حادثة الإسراء والمعراج، حين انتقل النبي محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، وذلك في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية، أي قبل الهجرة بعام تقريباً[١]، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم في قوله تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) [٢]

وخلال تلك الرحلة العظيمة، فرضت الصلوات الخمس على المسلمين، كما كانت القدس هي القبلة الأولى التي توجه إليها المسلمون في صلاتهم، قبل أن تتحول إلى الكعبة في السنة الثانية بعد الهجرة[٣]، ولهذا، اتجه مسجد قباء والمسجد النبوي في بداياتهما نحو بيت المقدس.

ربطت واقعة الإسراء والمعراج مدينة القدس بالعقيدة الإسلامية وجعلت لها مكانة دينية راسخة في قلوب المسلمين، كما أكد القرآن الكريم على بركة هذه الأرض في عدة مواضع، منها قوله تعالى: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِين[٤] .

وقد وردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة، تجاوز عددها المئة، تؤكد على منزلة القدس وأهميتها في الإسلام، ومنها ما رواه النبي ﷺ عن المسجد الأقصى: "ائتوه فصلوا فيه، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يُسرج في قناديله) [٥].

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت ٧٧٣هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، (مكتبة المعارف: بيروت، ١٩٩٠)، ج٣، ص١٠٧.

(٢) سورة الاسراء الآية (١).

(٣) أبو هلال العسكري، الحسين بن عبد الله بن سهل، الأوائل، ط١ (دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٧)، ص١٥٦.

(٤) سورة االانبياء الآية (٧١).

(٥) أبو داوود السجستاني، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داوود، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (مطبعة السعادة: القاهرة، ١٩٥٠)، ج١، ص١٨٢.

وقد أشار النبي محمد ﷺ في حديث شريف إلى المكانة الخاصة التي يحظى بها المسجد الأقصى بين المساجد، حين عده من بين ثلاثة مساجد فقط يُستحب شد الرحال إليها لأداء العبادة، حيث قال: لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا[1]، وهذا الحديث يبرز تميز المسجد الأقصى وفضله في الشريعة الإسلامية.

أهداف الدراسة:

يسعى هذا البحث إلى إثبات الانتماء العربي والإسلامي لفلسطين، وبيان المكانة الدينية والتاريخية لبيت المقدس في الوجدان العربي الإسلامي، لا سيّما في ظل التحديات المعاصرة ومحاولات السيطرة على المسجد الأقصى. كما يهدف إلى وضع إطار فكري يُسهم في تنمية الوعي الذاتي لدى الأفراد، وتعزيز القدرة على الدفاع عن الهوية الدينية والوطنية.

أهمية الدراسة:

تتزايد أهمية هذا البحث في ضوء ما يشهده المسجد الأقصى من محاولات استيلاء أو إعادة توجيه للخطاب السياسي والديني المرتبط به، ما يستدعي الوقوف على انعكاسات هذه الظواهر على الأطفال المسلمين من الجانبين التربوي والنفسي. وتسعى الدراسة إلى استكشاف الدور التربوي للبيئة التعليمية في ترسيخ الهوية الدينية، وتعزيز القيم المرتبطة بالمقدسات، بالإضافة إلى تسليط الضوء على الأثر التكويني الذي يلعبه المسجد الأقصى في وعي المسلمين وهويتهم الوطنية والدينية.

منهج البحث:

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، لكونه الأنسب لدراسة الظواهر التربوية والدينية في سياقها الواقعي، مع الاستفادة من الأدبيات النفسية والتربوية ذات العلاقة. وقد تم تحديد المشكلة البحثية وصياغة الفرضيات بناءً على مراجعة الأدبيات، إلى جانب توظيف أدوات جمع المعلومات المناسبة لتحقيق أهداف الدراسة

(١) مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. (مكتبة المحتسب: عمان، ١٩٧٣)، ج١، ص٢٣٠-٢٣١.

خطة البحث:

وقد احتوى هذا البحث على مبحثين لكل مبحث ثلاثة مطالب, وخاتمة تتضمن نتائج البحث وأهم التوصيات, ثم ذيل البحث بثبت بأهم المصادر والمراجع التي استعنت بها في البحث, فجاءت محتويات البحث كما يأتي:-

المبحث الأول: مكانة فلسطين في الإسلام

المطلب الأول: مكانة فلسطين التاريخية في الإسلام.

المطلب الثاني: الفتح الإسلامي لفلسطين.

المطلب الثالث: فلسطين في العهد الاموي.

المبحث الثاني: فلسطين من العهد العباسي الى المملوكي.

المطلب الأول: فلسطين في العهد العباسي.

المطلب الثاني: القدس في العصر الصليبي (٤٩٢هـ / ١٠٩٩م)

المطلب الثالث: فلسطين في العهد الأيوبي.

وتناولت في الخاتمة: أهم ما توصلت إليه من نتائج لهذا البحث.

وأخيراً ... أرجو أن أكون وفقت في تناولي هذا الموضوع

المبحث الأول
مكانة فلسطين في الإسلام

المطلب الأول: مكانة فلسطين التاريخية في الإسلام.

تنبأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مدينة القدس، حيث ورد في حديثه مع معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا معاذ، إنه سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن احتل ساحلاً من سواحل الشام وبيت المقدس، فهو في جهاد إلى يوم القيامة[١]، كما أورد في حديثه مع شداد بن أوس رضي الله عنه: "ألا إن الشام ستفتح، وبيت المقدس سيفتح، وتكون أنت وولدك أئمة بها إن شاء الله[٢]، وقد تجلت بوادر الفتح الإسلامي للقدس من خلال إرسال النبي صلى الله عليه وسلم بعثة استكشافية لدراسة أحوال المنطقة تمهيدًا للفتح المرتقب. حيث بعث النبي ﷺ جيشًا قوامه ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة زيد بن حارثة إلى منطقة الكرك في سنة ٨ هـ / ٦٢٩م، حيث خاضوا معركة مؤتة التي انتهت بهزيمة كبيرة لجيش الروم[٣] .

وفي سنة ٩ هـ / ٦٣٠م، وقعت غزوة تبوك التي قادها النبي ﷺ بنفسه، ومنح الله سبحانه وتعالى المسلمين النصر في هذه الغزوة دون اشتعال المعركة[٤]، وفي السنة ١١ هـ / ٦٣٢م، بدأت الاستعدادات لحملة أسامة بن زيد رضي الله عنه، التي كانت مقررة بعد وفاة النبي ﷺ. ورغم وفاة النبي قبل انطلاق الحملة، تولى الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة وأمر بإرسال جيش أسامة إلى الشام، حيث حقق الجيش انتصارات عديدة وأعاد القبائل العربية التي ارتدت عن الإسلام إلى صفوف المسلمين (اليعقوبي، ١٩٨٨، ج٢: ١١٣؛ الطبري، ١٩٧٦، ج٣: ١٨٤؛ ابن كثير، ١٩٩٠، ج٧: ٣).

---

(١) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور،(دار الفكر، بيروت)، ج٣، ص١١٢.

(٢) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١: ٢٤٤.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب. تاريخ اليعقوبي، تح: محمد صادق بحر العلوم،(منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٨٨)، ج٣، ص٩٥.

(٤) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع(٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، (دار صادر: بيروت/ب.ت)، ج٢: ١٦٥.

المطلب الثاني: الفتح الإسلامي لفلسطين.

عقب انتهاء الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه من حروب الردة، باشر بتنفيذ الخطط العسكرية لفتح بلاد الشام، حيث وجّه حملة إلى فلسطين بقيادة القائد عمرو بن العاص. وقد مثّلت معركة اليرموك، التي وقعت في السنة ١٦هـ / ٦٣٨م، نقطة تحول حاسمة في مسار الفتوحات الإسلامية، إذ مهدت الطريق لسيطرة المسلمين على غالبية مدن الشام، فيما بقي فتح القدس هو الهدف التالي في هذا المسار(١).

تولى أبو عبيدة بن الجراح قيادة القوات الإسلامية التي اتجهت إلى مدينة القدس، حيث فرض عليها حصارًا محكمًا، بينما تحصّن النصارى داخل أسوارها. وبدوره، تقدم يزيد بن أبي سفيان نحو سور المدينة وعرض على سكانها أحد ثلاثة خيارات: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال، فاختاروا الخيار الأخير(٢)، ومع تصاعد الضغط العسكري، تراجعت معنويات الروم داخل المدينة، مما دفعهم إلى طلب التفاوض. وقد تولى صفرونيوس (٥٨٠–٦٣٨م / ١٦هـ)، بطريرك القدس، تمثيلهم في المفاوضات، حيث طلب الصلح مع المسلمين مشترطًا حضور الخليفة عمر بن الخطاب شخصيًا لتسليم المدينة(٣).

استجاب الخليفة عمر بن الخطاب لهذا الطلب، فتوجه إلى منطقة الجابية، حيث استقبله القادة المسلمون، وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان. ومن هناك تابع مسيره إلى القدس، حيث التقى بالبطريرك صفرونيوس وأبرم معه اتفاق الصلح(٤)، وقد كتب الخليفة عمر لأهل القدس عهدًا يُعرف بالعهدة العمرية، منحهم فيه الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وضمن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية.

عقب عقد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتفاق الصلح مع أهل القدس، دخل المدينة برفقة أربعة آلاف من الصحابة، وكان في استقباله بطريرك المدينة صفرونيوس. وعند دخوله المدينة، توجه عمر إلى المسجد الأقصى، حيث صلى في الموضع الذي يُعرف اليوم بـ»محراب

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى جابر، فتوح البلدان. تح: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، (دار النشر الجامعيين: بيروت،١٩٥٧)، ص١٤٠.

(٢) الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، (مكتبة المحتسب: عمان، ب.ت)، ج ،ص١٢٣٠-٢٣١.

(٣) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م). الكامل في التاريخ. ج١٢. (دار صادر: بيروت، ١٩٦٦)،ج٢، ص٥٠٠.

(٤) محمد حسن محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ط١، (عمان: دار حنين للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٢)، ص٩٨.

داود» رضي الله عنه[١]، وتُروى روايات تاريخية تشير إلى أن كعب الأحبار، الذي كان حاضرًا لحظة الفتح، هو من دلّ الخليفة عمر على موضع الصخرة المشرفة، فأمر عمر بتنظيف المكان، ومن ثم أمر ببناء مسجد من الخشب في ذلك الموضع، عُرف لاحقًا بـ»مسجد عمر»، وكان يتسع لنحو ثلاثة آلاف مصلٍّ[٢].

أقام عمر بن الخطاب في القدس مدة عشرة أيام، نظم خلالها شؤون المدينة، فعين يزيد بن أبي سفيان واليًا عليها تحت قيادة القائد العام أبي عبيدة بن الجراح. كما كلف سلامة بن قيصر بإمامة الصلاة في المسجد، وأسند الإشراف على الشؤون العسكرية إلى علقمة بن مجزر[٣].

المطلب الثالث: فلسطين في العهد الأموي:

كانت مدينة القدس جزءًا من ولاية الشام التي تولى معاوية بن أبي سفيان (٦٠٢-٦٨٠م / ٦٠هـ) إدارتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. ثم ولاه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه على نفس المنطقة، وبعد استشهاد عثمان، استمر معاوية في حكم الشام بشكل مستقل، حيث كان أنصار معاوية في الشام داعمين له في خلافته ضد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكذلك في مطالبته بالثأر لعثمان بن عفان. وكان معاوية يلقب أمير الشام[٤]

ويذكر ابن طاهر المقدسي أن القدس كانت في حالة خراب قبل دخولها في الإسلام، وقد شهدت عملية إعمار كبيرة بعد ذلك. فبعد فتح المدينة، قام الخليفة عمر بن الخطاب بتعميرها، ومن بعده معاوية بن أبي سفيان. ومن المرجح أن هذا الإعمار كان يشمل المسجد الأقصى، الذي لم يكن قائمًا عند فتح المدينة. ووفقًا للروايات، بنى عمر بن الخطاب مسجدًا سمي بمسجد عمر، ثم أضاف إليه معاوية بن أبي سفيان، بينما تم البناء الحقيقي للمسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك[٥].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص٥٣.

(٢) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٥٦.

(٣) الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص٢٤٤.

(٤) الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار المعارف: القاهرة، ١٩٧٦)، ج٥، ص١٦١.

(٥) المقدسي. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (مكتبة مدبولي: القاهرة، ١٩٩١)،ص٨٧.

أما بالنسبة لليهود، فقد مُنعوا من الإقامة في القدس منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وظل هذا المنع قائمًا حتى فترة الدولة الأموية. لم يُسمح لليهود بالإقامة في المدينة إلا في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث تم تكليفهم بأعمال النظافة وخدمة المساجد في القدس، بما في ذلك مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك[١].

(١) المقدسي. أحسن التقاسيم ص١٧١.

المبحث الثاني
فلسطين من العهد العباسي الى المملوكي

المطلب الأول: فلسطين في العهد العباسي:

سقطت الدولة الأموية في عام ١٣٢هـ / ٧٤٩م، وعندما تولى العباسيون الخلافة، كانت فلسطين جزءًا من جند الشام، التابع إداريًا لدمشق. وقد تم تعيين أبو العباس يحيى بن جعفر الهاشمي واليًا على فلسطين حتى عام ١٣٣هـ / ٧٥٠م[١] .

أولى العباسيون اهتمامًا بالغًا بمدينة القدس، حيث تجسد هذا الاهتمام بشكل خاص في عهد الخليفة العباسي الثاني، أبو جعفر المنصور (٩٥هـ / ٧١٤م - ١٥٨هـ / ٧٧٥م). فقد ذكر المسعودي: أن الخليفة المنصور زار مدينة القدس في سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م، حيث صلى في المسجد الأقصى لنذر كان عليه ثم غادر[٢].

أظهر أبو جعفر المنصور رعاية كبيرة للمسجد الأقصى، خاصة بعد أن تعرض الزلزال لهدم بعض أجزائه. وأن الخليفة أمر بإعادة بناء المسجد وأروقته بطريقة أفضل مما كانت عليه سابقًا، وكان ذلك في عام ١٥٤هـ / ٧٧١م[٣].

من بين الإجراءات التي اتخذها الخليفة المنصور في المسجد الأقصى، أمره بقلع أبواب المسجد التي كانت ملبسة بالذهب والفضة في زمن الأمويين، وصرف ما قيمته من دنانير للإنفاق على بناء المسجد[٤].

كما اهتم الخليفة العباسي المهدي (١٢٧هـ / ٧١٤م - ١٦٩هـ / ٧٨٥م) بالمدينة، حيث سعى إلى تهدئة الخلافات بين القبائل العربية في بادية الشام من خلال زياراته إلى دمشق والقدس، إضافة إلى مساعيه لتوطيد العلاقة بين سكان بلاد الشام وبقية المناطق الإسلامية (جميل نخلة المدور، ١٩٠٥: ١٠٥)،وفي عهد الخليفة المهدي، وقع زلزال آخر دمر البناء الذي أمر به أبو

(١) محمد حسن محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ص١٠٦.

(٢) المسعودي، أبو الحسن قطب الدين، مروج الذهب ومعادن الجوهر (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات: بيروت، ١٩٦٥)، ج٣، ص ٣٠٤.

(٣) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٦٨.

(٤) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٨٢.

جعفر المنصور، فأمر المهدي بإعادة بناء المسجد من جديد[١].

زاد من أهمية القدس في عهد العباسيين العلاقات الدبلوماسية بين الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٥هـ / ٧٦٣م - ١٩٣هـ / ٨٠٩م) وشارلمان، ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي كانت تعكس احترام المسلمين للمسيحيين وحرية العبادة التي تمتع بها رعاياهم في المدينة[٢] .

وبالإضافة إلى ذلك، كان اهتمام الخليفة المأمون (١٧٠هـ / ٧٨٦م - ٢١٨هـ / ٨٣٣م) كبيرًا بمدينة القدس، خاصة في ما يتعلق بمسألة بناء قبة الصخرة. إذ شجع المأمون فنانيه ورساميه على نسب بناء قبة الصخرة إليه بدلاً من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. على الرغم من أن بناء القبة كان قد تم في عهد عبد الملك بن مروان، كما تؤكد الكتابات المنقوشة حول القبة التي تؤرخ لعام ٧٢هـ / ٦٩١م[٣].

المطلب الثاني: القدس في العصر الصليبي (٤٩٢هـ / ١٠٩٩م)

شهدت البلاد الإسلامية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تدهورًا كبيرًا في أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نتيجة الانقسامات والخلافات بين أمراء المسلمين على السلطة، مما أدى إلى ضعف الجبهة الإسلامية[٤]، ولم تبذل هذه القوى الإسلامية أي جهد حقيقي لتوحيد صفوفها أو وضع حد للخلافات الداخلية، مما أفسح المجال أمام الغزو الفرنجي لتهديد حواضرهم[٥] .

في هذا السياق، بدأت في أوروبا الدعوات لتنظيم حملات عسكرية تُعرف لاحقًا بالحروب الصليبية، وكان انطلاقها الفعلي بعد انعقاد مجمع في شهر ذي القعدة من سنة ٤٨٨هـ / تشرين الثاني ١٠٩٥م في جنوب فرنسا، برئاسة زعيم الكنيسة الكاثوليكية آنذاك، والذي ركز في خطابه على معاناة المسيحيين في الديار الإسلامية، وعلى قدسية بيت المقدس، مما أثار

(١) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٨٢.

(٢) زيدان الكفافي وآخرون، القدس عبر العصور. (اربد: جامعة اليرموك، ٢٠٠١)، ص١١٣.

(٣) زيدان الكفافي وآخرون، القدس عبر العصور، ص١١٥؛ محمد حسن محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ص١٣٤.

(٤) محمد حسن محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ص١٤٩.

(٥) ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، (دار الفكر: بيروت، ١٩٨٨)، ج١٢، ص١٢٩-١٣٠.

حماسة الجماهير وحفزهم على المشاركة في الحملة واعتمدت هذه الدعوة على استغلال الواقع الاجتماعي والاقتصادي المتردي في أوروبا، حيث سادت الإقطاعية، وكثرت الضرائب والديون على الفلاحين، فاستُغلت عاطفة الأوروبيين الدينية، وقدم لهم زعيم الكنيسة وعودًا بمغفرة الذنوب، والجنة لمن يُقتل في هذه الحروب، فضلًا عن امتيازات دنيوية كإسقاط الديون وحماية الممتلكات والعائلات(١).

وبالفعل، وصلت القوات الفرنجية إلى أسوار القدس يوم الثلاثاء، ١٥ رجب سنة ٤٩٢هـ، الموافق ١٧ تموز ١٠٩٩م، وفرضت حصارًا من عدة جهات، حيث توزعت قواتهم حول المدينة، وشددوا الحصار شيئًا فشيئًا حتى تمكنوا من اقتحامها في يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ / ١٥ تموز ١٠٩٩م، اتخذ المسلمون بعض التدابير الدفاعية، منها ردم وإفساد مصادر المياه، وإخفاء الماشية في الكهوف، وتقوية تحصينات المدينة على يد الحاكم الفاطمي افتخار الدولة الذي اعتمد على قوات مصرية وسودانية مسلحة جيدًا، كما طرد المسيحيين الشرقيين تحسبًا لخيانة محتملة(٢).

وأبدى سكان المدينة مقاومة كبيرة، شملت تصنيع آلات حربية واستخدام القذائف المشتعلة. كما خرجت مجموعات من داخل المدينة للقيام بهجمات خلف صفوف العدو، وهاجمت الجنود الذين كانوا يجمعون المؤن والعلف في الأرياف، وأدى ذلك إلى مقتل عدد كبير منهم. بالإضافة إلى ذلك، نصبت بعض المجموعات كمائن بالقرب من الينابيع، وهاجمت من يقترب منها كما سعت القوات الإسلامية إلى جمع المعلومات عن تحركات الفرنجة، عن طريق إرسال العيون إلى معسكراتهم، وكان بعض السكان يتمكنون من كسر الحصار والدخول إلى المدينة لدعم المدافعين وتعزيز صمودهم (٣).

أولاً: سقوط القدس في يد الفرنجة

رغم كل الجهود الدفاعية التي بذلها المسلمون، سواء من داخل المدينة أو من محيطها الريفي، إلا أن الفرنجة تمكنوا من دخول القدس يوم الجمعة، الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ / الخامس عشر من تموز سنة ١٠٩٩م ، وارتكبوا مجزرة مروعة راح ضحيتها عدد كبير من سكان

(١) محمد حسن محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ص١٥٠.

(٢) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار. (دار الفكر: دمشق، ١٩٩٠)، ص٣٣٣-٣٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص٢٨٣.

المدينة والمدافعين عنها.

وقد أشار ابن الأثير إلى أن الفرنجة «ركبوا الناس بالسيف، وظلوا يقتلون فيهم أسبوعًا كاملًا». ودنّسوا الأماكن المقدسة، إذ قتلوا أكثر من سبعين ألفًا في ساحة المسجد الأقصى، كان من بينهم عدد من العلماء والأئمة والعبّاد، وتذكر المصادر الفرنجية أن عدد القتلى داخل المسجد بلغ عشرة آلاف، فيما أفاد بعض المؤرخين الغربيين أن عدد الجثث المنتشرة في شوارع المدينة وساحاتها كان لا يقل عن ذلك، مما يرجح صحة الرواية الفرنجية، خصوصًا بالنظر إلى مساحة المدينة وعدد سكانها آنذاك، والذي يُقدر بحوالي عشرين ألف نسمة، وقد تفاقمت أوضاع المدينة سوءًا بسبب عدم الاستقرار الذي شهدته خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجري نتيجة الحصارات المتكررة التي فرضتها كل من الدولة الفاطمية والسلجوقية(١).

ثانياً: حصار المسلمين لمدينة القدس واستعادتها:

بعد انتصار السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢هـ/١١٣٨م - ٥٨٩هـ/١١٩٣م) في معركة حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، أمر بفتح المدن والقلاع التي كانت تسيطر عليها القوات الفرنجية. وبمجرد أن أنهت القوات الأيوبية استعادة معظم المناطق، قرر السلطان التوجه بنفسه نحو القدس، وهو القرار الذي أثار رعب العدو(٢).

وصل السلطان صلاح الدين إلى المدينة يوم الأحد ١٥ رجب ٥٨٣هـ / ٢٠ أيلول ١١٨٧م، ونزل في الجهة الغربية من القدس حيث كانت القوات الإسلامية متمركزة هناك، وكان عدد هذه القوات يقدر بحوالي ستين ألف مقاتل قام السلطان بتفحص أسوار المدينة ومعرفة نقاط ضعفها، فقرر تركيز الهجوم على الجهة الشمالية، وقد نصب المسلمون المجانيق في هذه الجهة، وتواصل الهجوم على الجدار الشمالي للمدينة حتى تمكنوا من الوصول إلى سور القدس ونقبه، هجوم جماعي منسق ، وعندما شاهد الصليبيون ذلك، طلبوا الأمان من القوات الإسلامية(٣).

---

(١) سعيد البيشاوي، تاريخ القدس. (جامعة القدس المفتوحة: عمان، ٢٠٠٩)، ص١٣٩.

(٢) العماد الكاتب، الأصفهاني (٥٩٤هـ/١١٩٦م)، الفتح القسي في الفتح القدسي. (الدار القومية للطباعة والنشر: القاهرة، ١٩٦٥)، ص١٧١.

(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م). الروضتين في أخبار الدولتين، تح: إبراهيم الزيبق، ط١. (مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٩٧)، ج٣، ص٣٣٠-٣٣١.

ثالثاً: مفاوضات الصلح بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والإفرنج:

في الوقت الذي كان فيه هجوم صلاح الدين على القدس في أوجه، تصاعدت الخلافات داخل المدينة بين الطوائف المسيحية[١]، وتشير بعض المصادر إلى أن الأرثوذكس في القدس بدأوا يتعاونون سراً مع صلاح الدين، وتعهدوا بفتح أبواب المدينة له، سرعان ما أدرك باليان دي إبلين (٥٣٤هـ/١١٤٠م - ٥٨٨هـ/١١٩٣م) استحالة المقاومة، وذلك بسبب نقص الرجال والمقاتلين في المدينة، حيث قيل إنه كان في القدس رجل واحد مقابل كل خمسين امرأة وطفل وفي هذه الظروف، أرسل باليان مجموعة من كبار شخصيات القدس لطلب الأمان وتسليم المدينة بشرط احترام حياة الفرنجة في المدينة، والسماح لمن يرغب في مغادرتها بالخروج منها. وكانت هذه الشروط هي ذاتها التي قدمها صلاح الدين سابقًا، ولكنها قوبلت بالرفض من قبل باليان. ومع تدهور الموقف داخل القدس، حاول الفرنجة مرة أخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم. خرج باليان بنفسه لاستعطاف صلاح الدين، ولكن الأخير أصر على موقفه في تسليم المدينة دون قيد أو شرط عندما تفاقمت الظروف، لجأ باليان إلى الترغيب والتهديد، لكن موقف صلاح الدين ظل ثابتًا في المقاومة والصمود أمام المحتلين الاتفاق على تسليم القدس وتحريرها دون قتال[٢]

اتفق السلطان صلاح الدين وأتباعه على أن يسمحوا للمسيحيين بالخروج من المدينة مقابل دفع فدية، بحيث يتم دفع عشرة دنانير لكل رجل، بغض النظر عن حالته الاجتماعية، وخمسة دنانير لكل امرأة، ودينار واحد لكل طفل. أما الفقراء من الفرنجة، فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان فدية لسبعة آلاف منهم، بلغ مجموعها ثلاثين ألف دينار واشترط صلاح الدين أن يتم دفع المبلغ خلال أربعين يومًا[٣]، وبذلك، تحررت القدس صلحًا في عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. وعندما نصب السلطان صلاح الدين خيامه أمام أسوار المدينة، تم تسليمها بشرط أن يتم تحرير الأفراد مع ما يمكن حمله من أمتعة، وأن يتولى هو بنفسه حماية هؤلاء المقاتلين إلى الأراضي الأكثر أمانًا ، وقد نص الصلح على أن يدفع الصليبيون جزية عن كل شخص في المدينة، وتمت إقامة الصلوات في المسجد الأقصى بعد أن تم تنظيفه من الأوساخ والقمامة التي تركها الصليبيون. كما أدى السلطان صلاح الدين الصلاة في قبة الصخرة بعد تطهيرها[٤] (المنصوري، ١٩٩٨: ٤؛

(١) سعيد البيشاوي، تاريخ القدس، ص١٧١.

(٢) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٣، ص٣٤٠-٣٤١.

(٣) عاشور سعيد. الحركة الصليبية، ط٣، (الأنجلو المصرية: القاهرة، ١٩٧٨)، ج٢، ص ٧٨٨-٧٨٩.

(٤) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (توفي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م). السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد مصطفى زياد،

المقريزي، ج١، ق١: ١٩٥٧: ١٢٢).

المطلب الثالث: القدس في العهد الأيوبي:

عاش صلاح الدين الأيوبي في القدس لفترة من الزمن، حيث كان يرافقه الأمير علي بن أحمد المشطوب (مجير الدين الحنبلي، ١٩٧٣: ٣٤١). وعندما غادر المدينة المقدسة، قام بتعيين أخيه الملك سيف الدين العادل لتولي مسؤولية المدينة وتنظيم شؤونها (ابن شداد، ١٩٦٤: ٨٣).

لكن صلاح الدين لم ينسَ القدس، فقد زارها مجددًا في عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، حيث نزل في دار القسس المجاورة لكنيسة القيامة (ابن الأثير، ج١٢، ١٩٦٦: ٧٤؛ المقريزي، ج١، ق١، ١٩٥٧: ١٣٤). وكان هدفه تقوية المدينة وتحصينها، فأمر بحفر خندق عميق حولها، بالإضافة إلى بناء سور جديد. كما أحضر ٢٠٠٠ أسير من الفرنجة للعمل في بناء الأسوار، وأعاد تجديد الأبراج الحربية التي تمتد من باب العمود إلى باب المحراب (باب الخليل). وقد خصص صلاح الدين موارد مالية ضخمة لهذا المشروع، ووزع مسؤولية بناء السور بين أولاده وأخيه العادل وبعض أمرائه، وأشرف بنفسه على العملية.

استمر السلطان صلاح الدين في إقامة هذه التحصينات لفترة طويلة، حيث جدد عمارة الصخرة المقدسة وأكمل بناء السور والخندق، وعُرفت أعماله بالتقنية العالية والدقة في التنفيذ، كما شارك في عملية البناء ملوك وأمراء الدولة الأيوبية، إلى جانب القضاة والعلماء والصوفية والأولياء، بالإضافة إلى سكان القدس الذين شاركوا في الجهود المختلفة، بالإضافة إلى ذلك، وقف السلطان ثلث دخل مدينة نابلس وأعمالها لصالح القدس وعمارة سورها، كما نظم صلاح الدين عدة دواوين في القدس، حيث كان لكل ديوان عدد من النواب من المصريين ومن الشاميين[1]

صلح الرملة:

في عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، جرت مفاوضات بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد (Richard the Lionheart)، وأسفرت هذه المفاوضات عن توقيع اتفاقية الرملة في ٢١ شعبان من نفس العام (١٢ أيلول ١١٩٢م). وتضمنت الاتفاقية الشروط التالية:

ط٢، (لجنة التأليف والترجمة، القاهرة: ١٩٥٧)، ج١، ص١٣٤.

(١) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٣٨٣- ٣٨٤.

- تستمر الاتفاقية لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.
- يتم تقسيم مدينتي اللد والرملة بين المسلمين والإفرنج.
- تبقى عسقلان خرابًا ولا تعمر، ولن تكون بيد المسلمين.
- يظل السهل الساحلي من رأس الناقورة إلى يافا بيد الفرنجة.
- يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة القدس وبيت لحم والناصرة دون دفع أي ضرائب.
- تظل منطقة ما وراء يافا إلى رفح بيد المسلمين، وكذلك صيدا وبيروت وجبيل.
- تبقى الأراضي الداخلية بيد المسلمين.

بعد توقيع الاتفاقية، سمح صلاح الدين للفرنجة بزيارة بيت المقدس. أما هو، فبمجرد العودة إلى القدس، أمر بتعزيز التحصينات، كما أنشأ المدرسة والرباط والبيمارستان وأوقف عليها أوقافًا[1]

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ج١٢، ص٨٦- ٨٧ .

الخاتمة

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن سيَدنا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) الهادي الى رضوانه.

كان المسار السياسي لمدينة القدس مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالتطورات الإقليمية والعالمية على مر العصور. فبعد الانتصار الحاسم للمسلمين في معركة اليرموك عام ١٦هـ/٦٣٨م، أصبحت القدس جزءًا من الدولة العربية الإسلامية، مما أدى إلى تنامي الاهتمام الإسلامي بها، لا سيما خلال العهود الأموية والعباسية، حيث حظيت المدينة برعاية خاصة ومكانة دينية وسياسية مرموقة.

غير أن التمزق الذي أصاب وحدة العالم الإسلامي في فترة العباسيين الثانية (من ٢٣٢هـ/٨٤٧م إلى ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) أفسح المجال لتزايد أطماع القوى الصليبية الغربية، التي رأت في ضعف المسلمين فرصة سانحة للانقضاض على المدينة المقدسة. وقد تعرضت القدس خلال الحملات الصليبية لسلسلة من المآسي، شملت القتل والتهجير والأسر، ما خلف آثارًا مدمرة على سكانها من مختلف الأديان والطبقات الاجتماعية.

رغم ذلك، لم يتوقف الكفاح الإسلامي في مواجهة الاحتلال الصليبي، حيث توحدت جهود المسلمين في مقاومة الغزاة، حتى جاء الفتح الكبير بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي تمكن من استعادة المدينة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، فاتحًا بذلك مرحلة جديدة من سيادتها الإسلامية وعودة مكانتها في الحضارة العربية.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
١- الكامل في التاريخ، (دار صادر: بيروت، ١٩٦٦).
- البلاذري، أحمد بن يحيى جابر.
٢- فتوح البلدان. تح: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، (دار النشر الجامعيين: بيروت،١٩٥٧).
- جلال الدين السيوطي.
٣- الدر المنثور في التفسير المأثور،(دار الفكر، بيروت).
- أبو داوود السجستاني، سليمان بن الأشعث.
٤- سنن أبي داوود، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (مطبعة السعادة: القاهرة، ١٩٥٠).
- زيدان الكفافي وآخرون.
٥- القدس عبر العصور. (اربد: جامعة اليرموك، ٢٠٠١).
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع(٢٣٠هـ/٨٤٤م).
٦- الطبقات الكبرى، (دار صادر: بيروت/ب.ت).
- سعيد البيشاوي.
٧- تاريخ القدس. (جامعة القدس المفتوحة: عمان، ٢٠٠٩).
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م).
٨- الروضتين في أخبار الدولتين، تح: إبراهيم الزيبق، ط١. (مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٩٧).
- الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٢م).
٩- تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار المعارف: القاهرة، ١٩٧٦).
- عاشور سعيد.
١٠- الحركة الصليبية، ط٣، (الأنجلو المصرية: القاهرة، ١٩٧٨).
- ابن العديم، عمر بن أحمد.
١١- بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، (دار الفكر: بيروت، ١٩٨٨).

- العماد الكاتب، الأصفهاني (٥٩٤هـ/١١٩٦م).
١٢- الفتح القسي في الفتح القدسي. (الدار القومية للطباعة والنشر: القاهرة، ١٩٦٥).
- ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت ٧٧٣هـ/١٣٧٢م).
١٣- البداية والنهاية، (مكتبة المعارف: بيروت، ١٩٩٠).
- مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)
١٤- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. (مكتبة المحتسب: عمان، ١٩٧٣).
- محمد حسن محاسنة وآخرون.
١٥- تاريخ مدينة القدس، ط١، (عمان: دار حنين للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٢).
- المسعودي، أبو الحسن قطب الدين.
١٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات: بيروت، ١٩٦٥).
- المقدسي.
١٧- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (مكتبة مدبولي: القاهرة، ١٩٩١).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (توفي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م).
١٨- السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد مصطفى زياد، ط٢، (لجنة التأليف والترجمة، القاهرة: ١٩٥٧).
- أبو هلال العسكري، الحسين بن عبد الله بن سهل.
١٩- الأوائل، ط١ (دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٧.
- الواقدي، محمد بن عمر.
٢٠- فتوح الشام، (مكتبة المحتسب: عمان، ب.ت).
- وليم الصوري.
٢١- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار. (دار الفكر: دمشق، ١٩٩٠).
- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب.
٢٢- تاريخ اليعقوبي، تح: محمد صادق بحر العلوم،(منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٨٨).